بعد أن كان يعج بالباعة والمتبضعين

نفق الباب الشرقي.. احتفلت به الحكومة ساعة.. وأغلقته سنوات!

نفق الباب الشرقي المقابل لحديقة الأمة بني وفق تصاميم هندسية جميلة وكان ملاذا لكل جولاتنا أيام كان الباب الشرقي يمثل النزهة الأولى في حياتنا ونحن نحبو نحو الشباب الجميل، أيام جميلة لا تستطيع كل العذابات والأيام المخيفة التي عاشها العراقيون أن تمحوها من الذاكرة، حيث كان يتوزع الحلاقون وأصحاب مهن التصوير وباعة الملابس على جنبات هذا النفق المزدهر بالورود الجميلة، بعدنا عن نفق الباب الشرقي كما بعدنا عن أحبتنا وكل من نودهم بسبب الحروب وأيام الحصار المرة وكأن هذا النفق بدأ يشعر بغيابنا. بدأت جدرانه المغلّفة بأرقى أنواع السيراميك، وفي زمن الحصار تحول ما لصق بها من مرمر وسيراميك إلى قصور الرئاسة وحل محلها السمنت وبدأ النفق كأنه يعلن انقضاء مهمته، كواحة جميلة خضراء تتوسط ضجيج السيارات العابرة من وسطه ليعلن نفسه مكانا للمياه الآسنة ومجرمي الليل الطويل وصار مجرد المرور في هذا النفق بمثابة المخاطرة بالنفس من سارق أو قاتل، وشيئا فشيئا صار هذا النفق مغلقا وأعلنت شهادة وفاته من أعلى المستويات.

□ بغداد / فرات إبراهيم

مدخل النفق

بعد السقوط كان الناس يأملون بان تعيد أمانة بغداد الى هذا النفق وغيره القه وزهوه وتحقق ذلك باحتفالية يتيمة صدحت فيها حناجر شعراء زمن الصكوك بالتبجيل والتهويل لجهود رجال الامانة على هذا الانجاز العظيم وتناقلت الفضائيات الحدث بتقارير غبية وكأن إعادة ترميمه إحدى عجائب الدنيا السبع، وما ان انتهت تلاوة القرآن وقرأ الجميع كلماتهم وعتف (الصياحون) الابواق السابقة بكل ما تختزله ضمائرهم من شعر جاهز لكل الأوقات حتى تم إغلاقه ثانية بسلاسل من حديد وضع على أقفالها شرطة ومغاوير وجيش لدواعٍ أمنية!

رائحة المكان ما زالت تنبعث منه

وليد خالد احد العاملين في المكتبات القريبة من النفق يستذكر الايام الجميلة ويقول: ان هنالك تفاصيل انسانية حميمة تبقى تملأ المكان رغم ما اصابه من تناسٍ وخراب . فحيث كان يحاط المكانُ بالحدائق الجميلة التي كانت تخترق منتصف النفق وتتوزع بشكل دائري محاذية لأطراف المحال الجديدة حيث انتشرت محال التصوير الاسود والابيض والملون ومحال بيع وتصليح الساعات الغالية الثمن، ومحال اخرى لبيع الخزفيات التحف حتى صار هذا المكان الذي يتوسط بغداد هدف الكثيرين من البغداديين وابناء المحافظات الاخرى لقصده وربما نذهب اكثر من ذلك إذا قلنا انه محط أنظار العديد من السياح الأجانب الذين كانوا يملأون بغداد ، يقول ابو عبد الله وهو صاحب محل خزفيات وتراثيات سابق: كنا نتأخر حتى ساعات متأخرة من الليل لان الناس كانوا يملأون المكان بصخبهم كذلك السياح الأجانب الذين كانوا يتبضعون كل شيء من هذا النفق حيث المحال الكثيرة المنتشرة على جانبيه.

الحلاقون غيّروا صورهم القديمة

وقد ابتدأ الحلاقون " بتحديث " المكان عندما جلبوا أضواء النيون الحديثة وعلقوا صورا لالفس بريسلي وبروسلي وجون ترافولتا في موجة السبعينيات المسماة بـ" الخنافس " . وكانت قامة الفس بريسلي الفارعة الممتلئة حيوية وهو يمسك الغيتار . حيث انتشرت ولأول مرة بين الشباب العراقي موضات الحلاقة الحديثة لان اغلب هؤلاء الحلاقين تدربوا على أيد غربية ماهرة لعدة أشهر وعاداً بعدها لممارسة هذه المهنة بأحدث القصات العالمية والتي جذبت إليها آلاف الشباب المتطلعين إلى الحرية وتقليد الغرب في كل شيء، يقول الحلاق صالح : كنت املك محلا صغيرا في منطقة شعبية وقد كان طموحي أن اجعل هذه المهنة لها شأنها كما هو الحال في دول العالم فذهبت إلى بلغاريا ورومانيا وألمانيا وتعلمت هناك وعلى يد متخصصين في فن الحلاقة، كل ما هو جديد وحينما عدت استأجرت محلا لي في هذا النفق وعملت على تحديث المحل من خلال الديكور الصارخ والألوان المشعة مما يستهوي الشباب أمام تلك المناظر والصور لكبار النجوم بقصاتهم العالمية، إلا أننا اليوم ننظر إلى تلك المحال بألم بالغ وحسرة حينما نجد المكان وقد استوطنته الأوساخ والقاذورات وصار ملاذا للحيوانات وما زلت غير مؤمن بقضية الدواعي الأمنية لان الدولة وقواتها استطاعت الوصول إلى اشد المناطق سخونة وفرضت هيبتها هناك فكيف لا تفرض هيبتها على نفق يبعد عن مقرها مئة متر فقط.

نفق المكتبات والأناقة

محال أخرى تعرض الملابس الرياضية وملابس " المودرن " ، وقد أخذت هذه المحال ما يقرب من ثلثي مساحة النفق لكنها لم تخنق أنفاسه التي أضفت عليها ثلاث أو أربع من المكتبات ألقا خاصا حيث تتوزع ثلاث مكتبات في ثلاث مداخل للنفق من مجموع مداخله الأربع ، وتتناغم هذه المكتبات مع أجواء النفق وروحه عندما اختصت بنوع من الأناقة في العرض واستخدمت في بعضها فتيات في البيع إضافة الى العروض المميزة للمجلات الفنية التي أخذت اكبر مساحة في المكتبة ، وكما احدث النفق تغييرا في نظام العبور للمشاة والعربات فالذاهبون من الرصافة إلى الكرخ مشياً من جهة الباب الشرقي بإمكانهم العبور من نقاط في شارع السعدون أو شارع الجمهورية وصولا إلى جسر الجمهورية لكن الكثير منهم يفضل دخول النفق والاستدارة نحو الرائحة التي تبعثها محال الحلاقين . أما في الصيف فان منظر المياه التي تجري بين حشيش الأرض تمثل إغراءً خاصا للعابرين، أما القادمون من الكرخ للرصافة واغلبهم نحو عيادات الأطباء فيمثل النفق بالنسبة إليهم أفضل مكان للاستراحة أو الانتظار.

مغلق لدواعٍ أمنية

التبرير الذي أوجده المسؤولون عن المنطقة هو ان هذا النفق مغلق لدواع امنية لم يرق للكثير ممن التقيناهم وتحدثنا معهم ومنهم صاحب البسطية حميد محسن وهو صاحب محل سابق في هذا النفق:

كنت أتمنى أن تشمل حملة الإعمار التي تدعيها أمانة بغداد هذا النفق وان يتم افتتاحه بأقرب وقت لما يشكله هذا النفق من ذكريات جميلة في مخيلة العراقيين لكنني تفاجأت بغلقه بعد الاحتفالية التي أقامتها الأمانة فيه ولا نعرف سبب غلقه لحد الآن، كان عملي داخل النفق في احد المحال لكن بعد الاهمال الذي اصابه عدت الى الشارع لكي ابيع المواد الكهربائية وما زلت اتمنى ان يتم ترميم هذا النفق الجميل والذي لو تم استثماره بالشكل الصحيح لكان تحفة فنية جميلة في وسط العاصمة المتعبة من غياب الخدمات، ومن المحزن ان نسمع من يقول ان النفق مغلق لدواع امنية فهذا كلام غير صحيح لان المنطقة محاطة بكل الحراسات وتقريبا هي المنطقة الاكثر امنا في بغداد ويمكن ان تضع الدولة حماية خاصة وهذا امر ليس بالصعب، فنحن نرى برلمانيا تتمشى خلفه عشرات الحمايات والسيارات ولكن حين يصل الامر الى الصالح العام يصبح الامر صعبا وغير ممكن ، الغريب في الامر كما يذكر احد المارة بالقرب منا ان النفق لا يبعد عن اهم منطقة محصنة في بغداد سوى عبور جسر الجمهورية لتكون في احضان المنطقة الخضراء وكل حماياتها الالكترونية والبشرية والحيوانية ، ويأتي من يقول ان هذا النفق اغلق لدواع امنية فإذا كان المسؤول او رجل الأمن لا يشعر بالامان في هذا المكان وسط بغداد فهل يشعر به في الضواحي والاطراف حيث تتسيد المشهد الامني العصابات والخارجون على القانون..

قلادة بغداد واكوام القمامة

يعتز العراقي برموز يفضلها في بعض الاحيان على اشياء كثيرة عنده تحمل الاهمية، فقد لا يهتم البغدادي لدمار شارع كامل في مدينته، لكن تراه ينهار بسرعة لدمار تمثال الرصافي او غلق شارع الرشيد او اقتلاع الاشجار من على ارصفة شارع ابو نواس او اغلاق نفق السعدون الذي يسميه البغداديون (قلادة بغداد).

الكثير من الباعة المتجولين قرب نفق ساحة التحرير قالوا إنهم يفرحون عندما يرون مدينتهم تستعيد عافيتها من جديد حتى انها تؤثر إيجابا على سلوكياتهم وراحتهم النفسية، كما بين البعض انه كلما يرى نفق السعدون ما زال مغلقا يقول في داخله ان الوضع في بغداد لا يزال لا يبشر بخير، معتقدا أن شعوره سيزول مع إعادة افتتاح النفق.

أمام سينما السندباد التي كانت تختص بعرض الأفلام الهندية فقط يوجد نفق آخر يربط بين جهتي شارع السعدون وهذا النفق، وعلى الرغم من صغر مساحته إلا انه الآخر كان معلما جميلا من معالم بغداد ، لم أتذكر هذا النفق أثناء كتابتي هذه لكني بالأمس وأثناء سيري في هذا الشارع ذهلت لأكوام القمامة والأسلاك الشائكة التي وضعت على مداخل النفق من الجهتين وأصبح شكله مرعبا وكان الخوف يسكن فيه.

يقول ابو عدنان وهو صاحب محل قريب في شارع السعدون : لا ادري لماذا أمانة بغداد تغض النظر عن مثل هكذا أماكن وتهتم بأمور أخرى، انظر أنهم يعملون الطابوق المقرنص بالقرب منه ويتركون العمل في إعادته الى الحياة ، نحن لا ندري حتى ما الذي في داخل هذا النفق المرعب فهو مغلق منذ سنوات وصار ملاذا للقوارض والحيوانات السائبة في الليل .

ما تبقى من السيراميك والمرمر

بناء النفق للتقليل من أهمية نصب الحرية

ذكرت مصادر اقتصادية أن إيرادات أمانة بغداد بلغت من إيجار الأملاك والعقارات العائدة له العام ٢٠١١ أكثر من (٢١) مليار دينار. وذكرت دائرة العلاقات والإعلام أن إيرادات أمانة بغداد لعام ٢٠١١ بلغت (٢١٣٤٠) واحداً وعشرين ملياراً وثلاثمئة وأربعين مليون دينار وهي حصيلة لعملية جباية مبالغ إيجار الأملاك والعقارات التابعة لها من محال وأسواق ومرائب وبنايات ومطاعم وأماكن ترفيهية وسياحية وغيرها . هذا إذا ما استثنينا الأجور الكبيرة التي ستدرها محال تلك الإنفاق إذا ما تم استثمارها بالشكل الصحيح.

على احد المواقع الالكترونية قرأت شيئاً عن تنفيذ عمل نفق الباب الشرقي وبقدر كوني اكتب هذا التحقيق بدافع النهوض بالواقع الخدمي والجمالي لمدينة بغداد، إلا أن هذا الرأي أذهلني وأعادني الى حسابات جديدة في الغرض من فائدة بناء نفق الباب الشرقي حينها وهل حقا نحن شعب لا تبارح مخيلته نظرية المؤامرة طوال فترة حياته ..هذا ما قرأته..(من المعروف ان (ساحة التحرير) كانت من أجمل وأكبر ساحات بغداد، قبل أن يدمرها ويلغيها من الوجود (نفق السعدون) ذلك المشروع البعثي الأهوج. وقد قيل في وقتها أنهم أرادوا بذلك التقليل من أهمية (نصب الحرية) الذي كان يزعجهم، لهذا يغدو من الضروري إعادة إحياء هذه الساحة الرائعة وهذا المشروع ممكن تماماً من الناحية التقنية، وذلك ببناء سقف فوق (نفق السعدون) يسمح بإعادة بناء هذه الساحة. ويمكن أيضاً أن يوضع فيها نصب عملاق يعبر عن عصرنا العراقي الجديد ليكون مكملاً لنصب الحرية ولنصب السلام القائمين في حديقة الأمة المقابلة(.

من يقول إن النفق مغلق لدواعٍ أمنية فهذا كلام غير صحيح لأن المنطقة محاطة بكل الحراسات وتقريباً هي المنطقة الأكثر أمناً في بغداد

جدرانه غلّفت بأرقى أنواع السيراميك التي تحوّلت في زمن الحصار إلى قصور الرئاسة وحل محلها السمنت وبدأ النفق كأنه يعلن انقضاء مهمته